رأيي في تحديد عصر الراغب الأصفهاني

للدكتور عمر عبد الرحمن الساريسي

تقديـــم

رجّحت ، في العدد المزدوج ٣ ، ٤ من مجلـة المجمع الموقر ، نسبة كتاب « درة التنزيل وغرة التأويل » للراغـب الاصفهاني ، وقد عـزاه بعض قدامى الباحثين والمعاصرين لغيره . واليوم أحاول ، بحول اللـه ، انْ اقدِّم رايـاً في خطأ اكبر ، قـام في اذهان كثير من الباحثين ، حـول تحديد وفـاة الراغب الاصفهاني نفسه ، فأزعم أن وفاته قد كانت ، على الأرجح ، قبل عـام ٥٠٢ هـ ، الذي حدّده لهـا هؤلاء الباحثون ، بقرنٍ كاملٍ من الزمان ! وليس هذا الفرق في تحديد عصر أحـد رجال التراث بيسير ، بل إنـه يزداد اهميةً إذا ادركنا انَّ اغلب كُتَّاب الطبقات والتراجم قد اداروا ظهورهم لهـذا الكاتب فلا يكادون يتعرضون لـه ، ومن لـم يتجاهله مـن الباحثين المحدثين ، وهـم قلة ، فقد عـدَّه من اهل القرن الخامس الهجري . وكلمـا مضى الباحث في القـراءة في « محاضرات الأدبـاء » او في « معجم مفردات القـرآن » أو في « الذريعة الى مكـارم الشريعة » او في غيرها من آثـاره المطبوعة والمخطوطة ؛ شعر بظلـم جائر وحيف يتعرض لهمـا هذا الكاتب ، فأغراه البون الشاسع ما بـين الكائن والذي ينبغي أن يكون بالمزيـد من الكشف والبحث في سبيـل الوصول الى الحقيقة او مـا يشبه الحقيقة مما يرضي الضمير ويوفـي مطالب البحث العلمي الوثيـق .

الإشكال الأول ــ تاريخ الوفــاة :

حينمــا وافق مجلس كليــة الآداب ، بجامعة عين شمس ، علــى أن يدور بحثي (١) حول حياة أبــي القاسم ، الحسين بن مفضّل بن محمد ، المعروف بالراغب الأصفهاني واثره في اللغــة والأدب مع تحقيق إحــدى مخطوطاته ، مَضَيْــت اتسقط اخباره ، فذهبتُ الــى صاحب « كشــف الظنون » (٢) استهديه في التعرف الــى مصنفاته بصيصاً مــن نــور ، قد تسعف في الوصول إليــه كتب الاعلام والمؤلفين والمطبوعــات (٣) ، فعــدَّد من مصنفات الراغب مــا لا يزيد على اصابع اليــد الواحدة ، وسكتَّ عن الاشارة لعصر المصنف في بعضها ، بينما ذكــر ، في بعض ، انــه قد توفي في راس المائــة الخامسة . اما ما تذكره اكثر كتب المحدثين عن وفــاة هذا الرجل فهو عــــام ٥٠٢ هـ (٤) ، وبينهما فــرق زمني لا يستهان بــه ، انــه قد يكون قرناً براسه . وهذا هــو الإشكال الأول الذي يلتقيه الباحث في هــذا البحث .

---

(١) لنيــل درجة الدكتوراة في الاداب من قسم اللغــة العربية ، وقد نوقش البحــث بتاريــخ ١٩٧٧/١١/١٧ .

(٢) حاجــي خليفة ، استانبول ١٩٤١ .

(٣) مثل الاعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لعمــر رضا كحالة ومعجم سركيس .

(٤) راجــع الاعلام ٢ / ٢٧٩ ط ٢ ومعجم المؤلفين ٤ / ٥٩ ومعجــم المطبوعــات العربية ليوسف سركيس ٩٢٢ وتاريــخ الأدب العربي لكارل بروكلمــان ١ / ٢٦٩ (النسخة الألمانيــة) ودائرة المعارف الاسلامية ١ / ٤٠٧ ، ٤٧٣ .

الإشكال الآخر ــ نــدرة الترجمة :

استطلعتُ ياقــوت في « معجم الأدباء » (٥) فلــم أظفر منه بترجمة للراغب ، وبحثتُ في « طبقات الأدباء » (٦) فلــم أعثر على شيء ممــا اريد ، وكذلك كانت « طبقات الشافعية » (٧) . قلّبتُ صفحات « تاريــخ بغداد » (٨) فبــدا وكأن صاحبنا لم يزرها ولم يعرفها ، ثــم نظرتُ فــي « الوفيات » (٩) وفي تتماتهــا (١٠) فأعياني النظر ، وفتشتُ في « يتيمــة الدهــــر » (١١) مسرعاً ، وفيما أتمّهــا مــن « دميــة قصر » (١٢) و « وشاحها » (١٣) ومــا تلاها من « خريدة قصر (١٤) فلم أعــد عنه منها جميعا بكلمة واحدة ! ونقّبتُ في « سير أعــلام النبلاء » (١٥) فلــم يتــح

---

(٥) مطبعــة دار المأمون باشراف أحمد فريد رفاعي ، ولا ادري كيف يذكــر الخوانساري (في روضات الجنات ٣ / ١٩٧) أن صاحب معجم الادبــاء قد ذكر الراغب .

(٦) نزهة الالبــاء في طبقات الادباء ، ابو البركات الانباري (٥٧٧) تحقيق د. ابراهيــم السامرائــي ١٩٥٩ .

(٧) للامــام السبكي ٧٧١ هـ .

(٨) للخطيب البغدادي ٤٦٣ مكتبــة الخانجي والمكتبة العربية ببغداد ١٩٣١ م .

(٩) وفيات الاعيان ــ ابــن خلكان ٦٨١ هـ .

(١٠) الوافــي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ٧٦٤ ، فوات الوفيات ، ابن شاكــر الكتبي ٧٦٤ وعقود الجمان على وفيات الاعيان وهو مخطوط رأيتــه في مكتبة الفاتح بجامع السليمانية باستانبول رقــم ٤٢٤ صنعة محمد بن عبد الله المراكشي .

(١١) أبــو منصور الثعالبي ٤٢٩ هـ وهــو سبب التفتيش السريع .

(١٢) الباخــرزي ٤٦٧ هـ .

(١٣) علي بن يزيــد البيهقي ٥٦٥ هـ .

(١٤) العمــاد الكاتب الاصبهاني ٥٩٧ هـ .

(١٥) شمس الدين بن عثمان الذهبــي ٧٤٨ هـ .

لصاحبنا أن يكون واحداً منهم ، وسألتُ عن آدابه في « شذرات الذهب » (١٦) فوجدتُ أن صاحبها لم يعدّه منها .

إشارتان ونُقُول :

ولكن مصنفين فاضلين قد خالفا مَنْ قبلهما وعرضا له عرضاً وجيزاً ، وكان لعرضهما ، على وجازته ، قيمة كبيرة لمن تلاهما من كُتّاب التراجم العامة والخاصة .

أما أولهما فهو ظهير الدين البيهقي الذي عاش في القرن السادس (٤٩٩ — ٥٦٥) وترجم « لحكماء الاسلام » (١٧) وجعل أبا القاسم الراغب واحداً منهم .

ولا يقلل من قيمته ، في تقدمه ، عدم تعرضه لتاريخ الوفاة ، كما لا يقلل منها أنّ احداً ، بعده ، لم ينقل عنها ، في حدود علمنا ، فربما كان ذلك السبب ، كما يذكر بعض الباحثين ، هو الموقف الذي كانت تقفه العامة والخاصة في بعض مراحل التاريخ الاسلامي من رجال الحكمة والفلسفة (١٨) .

وأما الآخر فهو جلال الدين السيوطي (٩١١) (١٩) الذي نقل عنه المصنفون من ذوي الحرص والتثبت مثل حاجي خليفة في كشف الظنون . وعن هذا نقل سائر المصنفين ونقل أصحاب التاريخ الخاص

---

(١٦) ابن العماد الحنبلي ١٠٨٩ هـ .

(١٧) تاريخ حكماء الاسلام ، تحقيق ونشر الاستاذ محمد كرد علي ، دمشق ١٩٤٦ ، ص ١١٢ .

(١٨) الشيخ الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ٨٦ .

(١٩) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مكتبة الخانجي ، ط ١ ، ٢٩٦ .

واعني بهم مؤرخي الشيعة من امثال محمد باقر الخوانساري (٢٠) ومحسن الأمين العاملي (٢١) وعباس القمي (٢٢) وآغا بزرك الطهراني (٢٣) .

وكانت نقول هؤلاء عن صاحب كشف الظنون ذات قيمة في دراسة الراغب تعلو على ما اخذوه من المراجع التي ذكروها عمن سبقهم في التاريخ لطبقات الشيعة (٢٤) . وقد حاولت ان اطلع على هذه الطبقات فلم استطع .

وكان اثر السيوطي في ابراز فضل الراغب ، فوق ذلك ، فيما نقله عن بدر الدين الزركشي (٢٥) من حديث فخر الدين الرازي عن الراغب وانه من ائمة السنة « وقرنه بالغزالي » . وقد اطرى الزركشي نفسه ، ايضا ، احد مصنفات الراغب (٢٦) ، كما اطراه السيوطي في بعض مصنفاته (٢٧) .

---

(٢٠) روضات الجنات في احوال العلماء والسادات ، طبع وتحقيق ايران ٣ / ١٩٧ .

(٢١) اعيان الشيعة ، مطبعة الانتان ١٩٤٨ .

(٢٢) سفينة البحار ومدينة الحكم والاثار ١٣٥٩ ، والكنى والالقاب ، مطبعة العرفان ، صيدا ، ١٣٥٨ هـ .

(٢٣) الذريعة الى تصانيف الشيعة ، النجف الاشرف ، ٢٠ / ١٢٨ ، ١٠ / ٢٨ ، ٤ / ٣٥١ ، ٨ / ٩٥ .

(٢٤) مثل كتاب اخبار البشر ، ورياض العلماء وحياض الفضلاء للميرزا عبد الله ، واسرار الامامة للشيخ حسن بن علي الطبرسي ، ذكرها صاحب روضات الجنات وصاحب اعيان الشيعة غير انني لم استطع الاطلاع عليها في مكتبات بغداد (اثناء زيارتي لها في ١٩٧٥/١١/٦ ، وهي غير متوفرة في دار الكتب المصرية) .

(٢٥) البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مكتبة الحلبي ، ١ / ٢٩١ .

(٢٦) المرجع السابق حيث ذكر كتاب الراغب « الذريعة الى مكارم الشريعة » .

(٢٧) الاتقان في علوم القرآن ١ / ٧٢ حيث عدّ الراغب من المفسرين غير المحدثين واشار اليه في عدة مواضع .

وقـد كانت اشارات هؤلاء جميعا الى الراغب شديدة الشح في الاخبار عن الأحوال الشخصية لـه من ولادة ونشأة وروابط اجتماعية وثقافية وعملية ، فاقتصرت على الإيماء الى موقع مذهبه بين السنة والاعتزال والتشيع (٢٨) وعلى مبلغ اخذه من العلوم العقلية او النقلية (٢٩) ، أو على مدى قربه بالغزالي (٣٠) أو اعجاب ابي حامد الغزالي ببعض كتبه (٣١) . أما وفاته فقد اضطربت فيها اقوالهم اضطرابا شديدا .

حتى اذا ما وصلنا الى العصر الحديث راينا انّ نُقُول المحدثين عن السابقين لا تتعدى هذه الحدود ، وهو امر مألوف ، وقد قيل « وكيف اعتدال الفرع والأسّ مائل » . ولا يغيّر من هذه الحقيقة تعدّد الناقلين ، فقد ترجم للراغب ترجمة سريعة كل من بروكلمان (٣٢) والموسوعة العربية الموسعة (٣٣) ومعجم المطبوعات العربية (٣٤) والقاموس الاسلامي (٣٥) وجورجي زيدان (٣٦) وفهرس المكتبة الخديوية التيمورية (٣٧) . أما دائرة المعارف الاسلامية (٣٨) فقد نقلت عن بروكلمان نقلاً مباشراً .

---

(٢٨) السيوطي ، بغية الوعاة ، ٣٩٦ ، والخوانساري ، روضات الجنات ٣ / ١٩٧ .

(٢٩) البيهقي ، تاريخ حكماء الاسلام ١١٢ .

(٣٠) السيوطي ، بغية الوعاة ، ٣٩٦ .

(٣١) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ١ / ٥٣٠ .

(٣٢) المجلد الثالث المبسط ، ص ٥٠٥ ، النسخة الالمانية .

(٣٣) دار الشعب ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٨٥٤ .

(٣٤) يوسف سركيس ، مطبعة سركيس بمصر ١٩٢٨ ، ص ٩٢١ .

(٣٥) احمد عطية الله ، مكتبة النهضة العربية ١٩٦٦ ، ٢ / ٤٧٢ .

(٣٦) تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ٣ / ٤٤ .

(٣٧) ٤ / ٢٥٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣٨) المجلد التاسع ١ / ٤٠٧ ، ٤٧٣ .

ولـــم يكن حظ الراغب في كل هذه المراجع اكثر من سُطور ، لـــم تزد عنها ، إلاّ في فهرس المستشرق الألمانـــي بروكلمان .

على أن باحثاً فـــذاً قد هدته بصيرتُه الى ادراك فضل الراغـــب والتنبيه عليه لأول مرة في العصر الحديث ، وهـــو الاستاذ محمد كرد علي مؤسس المجمـــع العلمي العربي بدمشق واحـــد امراء البيان في الأدب العربي الحديث ، فقد أفرد له مقالة ضافية في مجلة مجمع دمشق (٣٩) نشرها فيما بعد في كتابه « كنوز الأجداد » (٤٠) ، ونشرها في احـــد اعداد مجلـــة المقتبس (٤١) التي يشرف على تحريرها . ولا يقلل من فضله هذا انـــــه حقق كتاب « حكمـــاء الاسلام » للبيهقي الذي ذكرنا انـــه اول من أطرى الراغب من الأقدمين ، فقد حققت مصنفات السيوطي والزركشي ولـــم يـــزد محققوها عـــن الهوامش المختصرة .

أمـــا مقالة الكاتب الشاعر محمد عبد الغني حسن حول كتـــاب « محاضرات الأدباء » المعروف للراغب فلم تعـــد ان تكون تلبية لنـــداء استاذه كرد علي في الشام . وقد حاول ، في هذه المقالـــة (٤٢) ، أن يتحدث عن هذا الكتاب ثـــم عقد مقارنة بينه وبين كتاب المستطرف للأبشيهي . أما ما عـــدا ذلك فلا أعرف أن أحدا قد تعرض لصاحب المحاضرات بأكثر من اشارة متعجلة (٤٣) ، في حدود ما نعلـــم .

---

(٣٩) العـــدد ٢٢ ، شبـــاط فبراير ١٩٤٧ .

(٤٠) مطبعـــة الترقي ، دمشق ، ١٩٥٠ ، ص ٢٦٩ .

(٤١) ٢ / ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٤٢) في كتابـــه دراسات في الادب والتاريخ .

(٤٣) مثـــل اشارة الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه تمهيد لدراسة الفلسفة الاسلامية ، ص ٨٦ .

واشارة الدكتور عمـــر فروخ في كتابه « تاريخ الادب العربي ، دار العلـــم للملايين ،

=

البحـــث :

لـــم يكن بـــد ، اذن ، من البحث عن اخبار الرجل عـــن نفسه ، بعد ان لم تسعف أحاديث الآخرين عنـــه . فلعلنا نقع منه على ما يـــدل على احواله الخاصة ، مـــن موطن ومنشأ ومعاش وتثقف ، ولعلنا نظفر منه على مـــا ينبىء بالعصر والمعاصرة .

لهـــذا فقد صح العزم على السفر ، ثانية (٤٤) ، الـــى استانبول ، للتنقير في المخطوطات هناك ، عـــن اخباره فيما خلّف مـــن رسائـــل ومصنفات . وقـــد تمت الزيارة في النصف الثاني من شهر حزيران عـــام ١٩٧٥م ، فكان اطلاع على مـــا نسب اليه من مخطوطات في المكتبـــة السليمانية كبرى مكتبـــات استانبول وفي غيرها كمكتبة كوبريللي ومكتبـــة احمـــد الثالث (طوب قبوسراي) ومكتبة راغب باشا ومكتبة بايزيـــد .

الـــم يتحدث عن نفسه ؟

وكـــان هذا السؤال الذي يـــرد اولا في الخاطر .

انـــه لم يتحدث بضمير المتكلم الا في مواطن قليلة الى حـــد ملموس ، فلننظر فيها وفيما وراءهـــا :

=

بـــيروت ١٩٧٢ (٣ / ٢١٤) .

واشارة الدكتورة وديمة طـــه نجم في كتابها « الجاحـــظ والحاضرة العباسية » ، بغـــداد ١٩٦٥ ، ص ٤٢ .

واشارة الشيخ محمد حسين آل كاشفي الغطاء في كتابه « اصل الشيعة واصولها » وحينما اورد الدكتور زكي مبارك نصا من « محاضرات الادبـــاء » للراغب ، في كتابه « النثـــر الفني في القـــرن الرابع الهجـــري » لـــم يقل لنا شيئـــا محددا عـــن عصـــر الراغـــب .

(٤٤) فقـــد كانت الزيارة الاولى لاستانبول بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٦ للحصول على النسخة الاخرى من مخطوطة « مجمـــع البلاغة » للراغب ، والتي عني الباحث بتحقيقهـــا وتقديمها مع هـــذا البحث لنيل درجة الدكتوراة .

في مخطوطة « مجمع البلاغة » نقرأ النصوص التالية :

« ورأيت من الادباء من يحمل ذلك على الاباحة (في شرح قولهم : اذا لم تستح فاصنع ما شئت) » (٤٥) .

« وأنشدت بعض الناس ... فقال لي ... (٤٦) .

« وللأدباء أشعار كثيرة في الهر اخترت صدرا منها في عيون الاشعار » (٤٧) .

وفي تفسيره المخطوط (٤٨) يقول « وقد رأينا كتبا كثيرة صنفت في الطعن على الاسلام قد نقلت وتدوولت » .

وفي كتاب « الذريعة الى مكارم الشريعة » يقول : « وكثير في زماننا من تحلى بعلم الكلام وترشّح فيه للجدال والخصام » (٤٩) .

هذا مبلغ ما يسمح به في حديثه عن نفسه : رأيت وأنشدت واخترت ورأينا وزماننا ، وكل هذه العبارات لا تنبيء عن شيء خاص في تكوين صورة له ، في اية مرحلة من مراحل عمره ، ولا يخرج عن هذا الشح في الحديث عن النفس ما يقوله في العبارة الاخيرة عن علم الكلام وما يستتبعه من جدال وخصام .

ثم نبحث عن صدى من مثل هذه اللمحات العزيزة عن بعض ملامح نفسه وأخلاقه فلا نجد الا القليل النادر ايضا .

---

(٤٥) مخطوطة مجمع البلاغة ، ورقة ١٠٨ .

(٤٦) المصدر السابق ، ورقة ١٧١ .

(٤٧) المصدر السابق .

(٤٨) مخطوط رقم ١٧١ ، مكتبة ايا صوفيا بالسليمانية في استانبول .

(٤٩) مجمع البلاغة الورقة ١٢٧ .

مـــن ذلك نص في « مجمع البلاغة » (٥٠) : قـــال :

وانشدت بعض الناس ، وقـــد لامني لمنعي ايـــاه شيئا سألنيه :

الامُ واعطي والبخيـــل مجـــاور لـــه مثل مالي لا يُلام ولا يُعطي

فقـــال : نعم تلام ثم تلام ، وانشد :

فمـــا كـــل بمعـــذور ببخـــل ولا كـــل علـــى بخـــل يـــلام »

لعـــل هذا الموقف الذي اجابه بـــه من كنّى عنه « ببعض الناس » يوحي انّ الراغب كـــان ذا سمعة طيبة وشهرة واسعة لا تسمح لـــه ان يتهـــم بالبخل كأيّ فرد آخـــر غير مشهور من الناس .

وقـــد نلمح اثر هذه السمعة الاجتماعية والمنزلة العلمية المتميزة في تقديمه لبعض مصنفاتـــه :

« سألت ايهـــا الاخ الفاضل ... ان اعمـــل رسالة ابيّن فيها انواع الاعتقادات التي يحكم بهـــا على الانسان بالايمان والكفـــر ... وقـــد استخرت اللـــه تعالى في ذلك وعملت مـــا اقترحته » (٥١) .

وفي آخـــر « كنا تذاكرنا ، اطال اللـــه بقاء الشيخ الفاضل وادام تأييده ، في لفظ الواحد والأحـــد وتحقيقهما ، فسأل ان اثبت ذلك كتابـــة ففعلت ايجاباً لـــه » (٥٢) .

---

(٥٠) الورقـــة ١٧١ .

(٥١) مقدمـــة رسالة في الاعتقاد ــ مخطـــوط رقـــم ٣٨٢ ، بمكتبة سعيد علـــي باشـــا بالسليمانية باستانبـــول .

(٥٢) مقدمـــة رسالة في ذكر الواحد والاحد ــ مخطوط رقـــم ٣٦٥٤ / ٢ ، بمكتبة اسعد افندي ، بالسليمانية باستانبـــول .

مشاركة في الندوات والمجالس العلميـــة :

فمـــن هذين النصين يتبيّن انّ الراغب كـــان يشارك الآخرين في مجالس العلم والادب ، ،وهي مـــا قلنا انها بمعنى محاضرات الادبـــاء ومجالسهم ، بل انـــه قد كان يسأل ليقدم رأيـــه في أمور دقيقة في العقائد كالايمان والكفـــر وعناصر الايمان وتحقيق لفظتي الواحد والاحـــد ، ولا يسأل عنها الا الراسخون في العلم . بل إنّ الراغب يورد لنـــا نصاً ثالثاً ، في هذا الصدد ، نلمح منه انـــه كان من الذين يقولون بالراي الفصل اذا مـــا اختلطت الآراء واختلفت ، يقـــول « بلغني ما جرى بحضرة الشيخ ، اطال اللـــه بقاءه ، من ذكر مخالطة الناس ومجانبتهم ان الحاضرين عنده اختلفوا : بعض يمدح المجانبـــة وبعض يمدح المخالطة ، ثـــم اختلفـــوا في الصداقة ، فأحببت أن أجعل ذلك كتابـــا أذكر فيه نكت ما قالـــه العلماء والحكماء واجعله هدية اليـــه » (٥٣) .

وهـــذا دليل على تفاعل الراغب مع المجتمـــع وقضاياه والانصات لمـــا يدور في مجالس كبراء المناصب السياسية والاجتماعية والخوض فيما يخوض الناس فيـــه من امور اجتماعية كالصداقة والاصدقاء ، وهـــو يلتقي مع ما قاله احـــد الناسخين على غلاف احـــدى مخطوطاته (٥٤) من انـــه « كان حسن الخَلْق والخُلُق جـــدا ، كان يستعبد الناس حســـن محاورته لهـــم » . غير انـــه لم يذكر احداً من العلماء على انـــه تتلمـــذ عليه او اخـــذ عنه ، وهذا من اعجب الأمور ، فتعمى علينـــا اســـمـــاء اساتذته وتلاميذه ، فيما وصلت اليه ايدينـــا ؛ حتى الآن ، من آثـــاره .

---

(٥٣) مقدمة رسالـــة في مخالطة الناس — مخطوط رقـــم ٣٦٥٤ / ٣ ، بمكتبـــة اسعد افندي ، بالسليمانية باستانبـــول .

(٥٤) مخطوط الذريعة الى مكـــارم الشريعة ، رقـــم ٧٦٨ ، بمكتبة ابراهيم باشـــا ، بالسليمانيـــة .

مسحـــة دينيـــة :

امـــا المسحة الدينية التي نتخيل انهـــا تصبغ افعاله وعلاقاتـــه الاجتماعية فقـــد نلمحها فيما سنرى من دعوته المتكررة لتسخير الدنيـــا في سبيل الآخرة ؛ ومن كثير مـــن الأدعية ينثرها في تصانيفه في البدايـــات والخواتيم وفي الأثنـــاء . من ذلك الدعاء الذي قد اجـــد فيه ممثلا لسائر ادعيتـــــه :

« اللهـــم زهدنا في الدنيا ووسّعها علينا ولا تزوها عنها فترغبنـــا فيها ... اللهـــم اغنني بالافتقار اليـــك ولا تفقرني بالاستغناء عنـــك ، اسالك خصب الرحل وصلاح الأهل والمعاونة على الدنيا بقناعـــة » (٥٥) .

ازمـــة في حياتـــه :

وقـــد عثر الباحث على خبـــر خاص بازمة عاناها الراغـــب ، وعلى الرغم من انهـــا لا تحل لنـــا شيئا من التساؤلات التي نحن بحاجة الى اجاباتها ، حتى الآن ، فاننـــا نعرضها .

انـــه يقول في احدى مخطوطاته (٥٦) « فلـــم تـــزل تلك الدواعي (دواعي النظر في الآيـــات المتشابهة في القـــرآن) تزيد وتنمي منذ الصبا وثوبـــه القشيب الى أن عوضت منه ريطة المشيب » وهـــذه عبارات قد تفيـــد ، بعد قليل ، في التعرف على عمره ، طولا وقصراً ، ثـــم يقـــول « فاتفقت خلوة سطوت على وحشتها بالقـــرآن ، ولولا انسه لم يكن لي بهـــا يدان ... وكانت هذه الخلوة خلوة عين لا خلوة قلـــب واضطرار لا عن اختيار بـــل لقهر وغلب في حالـــة توزع الراي فيها مذاهب واقتسم الهـــمّ لها مطالب » (٥٦) .

---

(٥٥) مخطوطة مجمـــع البلاغة ، ورقة ١٤٨ .

(٥٦) « درة التأويل في متشابه التنزيـــل » ، مخطوط للراغب ، رقـــم ٨٦٠ ، مكتبـــة اسعد افندي (السليمانية) استانبـــول .

ايــة ازمــة ؟

إنّ هــذه الأزمة قاهرة ، كما يبدو من قوله .. « لــم يكن لي بها يــدان » ومن قولــه .. « توزع الراي فيها مذاهب » وهــو صاحــب الراي السديد الذي يسعف به المتخاصمين ، كما مرّ بنا في مقدمة مخطوطته « في ادب مخالطة الناس » . فمــا عسى هذه الأزمة ان تكون ؟ ومــا طبيعتها ؟ أهي فكرية تتصل بالتردد بين علمــاء الكلام وبين آراء اهــل السنــة والجماعة ، كلاّ فــإنّ الراغب يتخذ في هذه الأمــور خطــا واضحاً لا تردّد فيــه ، وهو الوقــوف الى جانب اهــل السنــة والجماعــة (٥٧) ، ولــو انــه يرى صلاح الامــة في الجمع بين الشرع والعقل (٥٨) . أم أن أزمته اجتماعية ذات اتصال بمصدر كسب الرزق وانقطاعه بسبب موت وزيــر أو خلافه ؟ أم انهــا ذات طابع سياسي تتصل بقهر وزيــر أو وال او خلافهما بنــاء على مخالفة في الآراء الفكرية وفي مواقف الفــرق الاسلامية ؟ إنّ في كلمتــه ما يلمح الى هذا ويلمح الى ذاك . فهي « خلوة عين لا خلوة قلب » فلئن اغمضت عينه فــانّ قلبــه لم ينقفل ، إنّــه ظلّ على ما هو عليه ، عامراً بما كان عامراً بــه من فكر ويقين . ثــم إنّ فيها قهراً ، لا محالة ، اليس يقــول « لا عن اختيار بل لقهر وغلب » يبــدو ان الرجل قد غلب على امره فخلا الى نفسه ولــم يعصمه من الشطط في هــذه الخلوة إلاّ قراءة القــرآن ، وفيها توزع رايه مذاهب بــين القبول والرفض . بين الانصياع والثورة . ثــم ماذا بعد ؟ إننــا لا نستطيع أن نزيد شيئا ، فليس بين ايدينــا من اخباره مــا يساعدنا على الزيادة ، حتى الآن ، وان كنا لــم نزل نسعى في الظفــر بالمزيــد من اخباره .

---

(٥٧) مخطوط « رسالة في الاعتقاد » للراغب ، رقــم ٣٨٢ ، بالسليمانية ، (سعيد علي باشا) ، (استانبول) ، الورقة ٢ .

(٥٨) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، طبع حلب ، ص ٦٣ .

سـن الشيخوخـة :

وفيمـا يتصل بطول ما عاش من عمر فـان النصوص القليلة من اخباره ، في آثاره ، قد تدلنا على انّـه قد بلغ مرحلة الشيب والشيخوخة .

إنّـه يقول في احـد هذه النصوص « فلـم تزل تلك الدواعي ـ دواعي النظر في الآيـات المتشابهة في القرآن ـ تزيـد وتنمى منذ الصبا وثوبـه القشيب الى أن عوضت منه ريطة المشيب » (٥٩) وريطة المشيب يعني بهـا ثوب السن المتقدم في الكبر حينما يتغطى الراس بالغطاء الأبيض.

وفي ختـام كتاب « الذريعة » (٦٠) يقول « فسهّل يـا رب المجـاز ويسّر لـي بالجواز ، فقد حان حصادي ولـم يصلح فسادي » ، وواضح مـا يريده من ان يحين الحصاد في العمر دليلا على التقـدم في السن .

فـاذا ما عرفنا أن كتاب الذريعة هذا لـم يكن الأخير من كتبه في حياته ادركنا انـه قد ادرك ، على الأرجح ، مرحلة الشيخوخة لا الشيب فحسب . ذلك انّـه في مقدمة مفردات الفـاظ القرآن (٦١) يقول « كنتُ قـد ذكرتُ في الرسالة المنبّهـة على فوائد القرآن ... واشرتُ في كتاب الذريعة الى مكـارم الشريعة ... وقد استخرتُ اللـه في املاء كتاب مستوفى فيـه مفردات الفاظ القرآن ... وأتبع هـذا الكتاب ، ويعني المفردات ، بكتاب ينبىء عـن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد ومـا بينها من الفروق الغامضة ... » .

---

(٥٩) « درة التأويل في متشابه التنزيل » ، مخطوط للراغب ، رقـم ٨٦٠ ، مكتبة اسعد افندي ، السليمانية ، استانبـول .

(٦٠) طبعة مكتبة الكليـات الازهرية ، ١٩٦١ ، القاهـرة .

(٦١) طبعـة المطبعة اليمنية بالقاهرة ، ١٣٢٤ هـ .

وفي مقدمة كتاب الذريعة (٦٠) يقول « كنت قد اشرتُ فيما أمليتُه من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن الى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها ... وقد استخرتُ الله تعالى الآن وعملت في ذلك كتاباً يكون ذريعة الى مكارم الشريعة » .

ترتيب آثاره :

ومن هاتين المقدمتين يبدو انّه قد صنف اولا « الرسالة المنبهة على فوائد القرآن ثم تحقيق البيان في تأويل القرآن ، ثم كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة ثم كتاب المفردات في الفاظ القرآن ثم درة التأويل في متشابه التنزيل .

وهو يذكر بعض هذه المصنفات في مقدماته للبعض الآخر ، كما رأينا ، من النصوص السابقة ، بيد انه لا يذكر واحدة من هذه المصنفات الفكرية الدينية والأخلاقية في اي من مصنفيه الأدبيين — محاضرات الأدباء ومجمع البلاغة ، كما انه لا يذكرها في هذين المصنفين . فهل كانت المصنفات الأدبية في أوائل عمره الأدبي وكانت مصنفاته الأخرى في الفكر والدين والأخلاق والسلوك بعد ان تقدمت به السن ؟ انه افتراض قد يوصل اليه الاجتهاد والاستنتاج ، في غياب النصوص الصريحة الدالة .

كشف من المرآة المحطمة :

لقد كان الرجل ، اذن ، قليل التحدث عن نفسه وعن خصوصياته ، فلم يذكر لنا اسم استاذ اخذ عنه او فقيه أو اخباري او لغوي جلس اليه ، ولقد ترددت في آثاره عبارة « امليت » لكنه لم يضف عليها ليفيد باسم المملى عليه ، ولو مرة واحدة ، كما انه لم يحدثنا عن مُتَرباه وعن طفولته وعن نشأته ، لم يذكر لصوقه بايّ من

اصفهان التي يحمل اسمها ولا مـــن بغداد التي من المحتّم أن يكون قـــد الـــمّ بها او عاش فيها . فغاية ما استطعنا أن نجمعه من كِسَف هذه المرآة المحطمة ، الى جانب هـــذا التواضع في الحديث عن النفس الى درجـــة الندرة ، انـــه كان يشارك في ندوات القوم ومجالسهم العلمية برأي فيـــه التضلع في اللغـــة والتمكّن من الثقافة الدينية ، بـــل انّ الدين كان لديـــه مسلكاً وعقيدة وعبادة ، وانّه قد المّتْ بـــه ازمة ، لم ندر ما ابعادها وما دواعيها ، حملته علـــى الانعزال عن الناس برهة من الزمان ، لم نـــدر ما طولها ، وانـــه قد اشتعل رأسه شيبا ، وهو يضيف بعض أعمالـــه . اما أكثر من ذلك فلم نقف منه على اثـــر .

المزيـــد من البحث :

ومـــع هذا كله فان الباحث لا يستسلم لليأس مثـــل الطبيب الذي لا يسلّم للموت . فلا بـــد من تقليب ما اثـــر عنه من الغلاف الى الغلاف . لعلنا نظفر بما يقرّبنا مـــن صورته أو عصره .

فعلى الورقة الأولى من مخطوطة « الذريعة الى مكارم الشريعة » (٦٢) وجدت ترجمة للراغب نسخها مجهول عـــن ترجمة البيهقي التي عرضنـــا لهـــا في الاشارتين الى تاريخ وفاتـــه ، فهو يذكرها في نهايـــة الاشارة بقوله « من تذكرة الحكماء » ولعله يريـــد من « تاريخ حكماء الاسلام » ثـــم يضيف : « وكـــان حسن الخَلْق والخُلُق جـــداً ، وكان يستعبد النـــاس حسن محاورته بهـــم » وهو حديث عـــام لا يحصل شيئاً محدداً ، ويختم اشارته بقوله « مـــات بأصبهان وهو ابن ست وستين سنة ، ودفـــن بها ، رَحمه اللـــه » . وهي عبارة نافعة لـــو ارتبطت بذكر البداية الزمنية او النهاية التي تنبىء بتاريخ الوفاة ، أو تقربنا من عصر صاحبنا تقريبا ما .

---

(٦٢) رقـــم ٧٦٨ ، بمكتبة ابراهيم باشا بالسليمانية ، استانبـــول .

وعلى الصفحة الأولى من المخطوطة نفسها عثرت على فقرة كتبت بخط التعليق (الفارسي) الدقيق ، غير انها لم تضف الى ما نعرف شيئا ذا بال ، فقد عددت ثلاثة من آثاره وذكرت ان العلماء قد تلقوها بالقبول ، ثم اخذت تردد مزايا مدينة اصفهان التي هو واحد من مشاهيرها .

وعلى الورقة الاولى من مخطوطة اخرى للراغب هي « حل متشابهات القرآن » (٦٣) نجد حديثا لا يربطنا به الا انه مثبت على مخطوطة منسوبة حقاً لصاحبنا الراغب . فقد ذكر هنا القارىء المتسرع اسماً لم نعرفه من اسماء الراغب هو « ابو محمد بن الحسين الاصفهاني ». ولم تعرض كتب التراجم لاصفهاني يحمل هذا الاسم ، وفي هذا الحديث انه تصدر للوعظ والتدريس والتأليف ، وله مصنفات جليلة (لم يذكرها) ومناظرات عجيبة . وفيه ايضا ان له رحلة للهند وغيره (كذا) « ولما رجع الى نيسابور مات في الطريق سنة ست واربعمائة ، فنقل لنيسابور ودفن بها » .

ان هذه الآثار لا تستمد القوة من نفسها بل من قربها من اخبار اخرى موثقة قد تتهيا ، فليست ، وحدها ، مطمئنة ولا معروفة ، وليست معلنة عن اصحابها ، ولا تحمل المعلومات الكافية عن الراغب . انها ، اذن ، قد تفيد في الترجيح على الرغم مما يكتنفها من الشك . ونحن نستمع بإرهاف لأشدّ الأصوات خفوتاً حينما تعزّ علينا الأصوات العالية الصريحة ، وقد قال الشاعر :

من جزّ كلبا فمحتاج الى وبر ولا قطُّ الحبّ محتاج الى البعر

---

(٦٣) رقم ١٨٠ ، بمكتبة راغب باشا باستانبول .

مـا بيـن السطـور :

ونبحث ، من بعـد آثاره ، فيما بين سطور آثاره ، نستنطقهـا ولا بـد انها ناطقة ، فلعلها لا تكون صماً خوالد ما يبين كلامها « كأطـلال لبيـد » .

فمـن هـم الأعلام الذين ذكرهم الراغب في هذه الآثـار ؟

ومن هـم الأدباء الذين اجرى أشعارهم ومنثوراتهم في تضاعيفها ؟

ومن هـم رجال السياسة الذين عرض لذكرهم في حياته ؟ هـل ذكـر بعضهم باحتشام وتهيب ؟ وذكـر آخرين بغير تلك المشاعر ؟

ان آخـر وفاة يذكرها الراغب في آثاره لا ترقى ، في حـدود مـا علمت من مطبوعاته ومخطوطاته (٦٤) ، الى اكثر من عـام ٤٢١هـ ، وبصورة ادقّ كان هذا العام هو تاريخ وفـاة اكثر الرجال تأخراً في حياته ، وهذا العام هو عـام وفاة ابي علي الخازن احمد بن يعقوب بن مسكويه (٦٥) . بـل ان اكثر من ذكرهم من اعلام السياسة والادب هـم من قضى فـي اخريات القرن الرابع . لقد ذكر ابـا الفضل بن العميد وزير بني امية في مخطوطة مجمـع البلاغة خمس مرات وفي محاضرات الأدباء مثل ذلـك تقريباً ، وعدوا لـه فيهما اقوالا ، وذكـر الصاحب بن عباد الوزير الثاني لبني بويه في المخطوطـة المذكورة سبع عشرة مرة وفي محاضرات الادباء اكثر من ذلك ، واورد بعض اقوالـه واشعاره وضربها امثلة علـى موضوعات كان يطرقها . ومن المعروف ان الاول قد توفي عام ٣٦٠ هـ (٦٦)

---

(٦٤) لقد اطلعت ، حتى الان على اثاره المطبوعة والمخطوطة التي ذكرها بروكلمان ما عـدا مخطوطتي كتاب الاخلاق ، (برلين ٥٢٩٢) ، وادب الشطرنج ، (قـازان ISL. XVII 4) ، فأنـا ماض في البحث عنهما بمشيئة اللـه .

(٦٥) الاعـلام ١ / ٢٠٤ ، ط ٣ .

(٦٦) وفيـات الاعيان ٥ / ١٠٩ ، وتجارب الامـم ، ابن مسكويه ٣٠١ .

وأمـــا الآخر فعام ٣٨٥ هـ (٦٧) .

ولقـــد ذكر معهما حكام بني بويه كعضد الدولـــة (٣٧٢ هـ) (٦٨) وعـــز الدولة (٣٦٧ هـ) (٦٩) . غير انّـــه لا يذكر ، ولو خبراً واحداً عن الذين ادال لهـــم من بني بويه فخلفوهم على الحكم واعنـــي السلاجقة الأتراك الذين يبـــدأ تاريخ حكمهم عـــام ٤٤٧ هـ . فهل تراه يعيش الى عـــام ٥٠٢ هـ ، الذي ذكر انـــه توفي فيه ، نيفـــاً وخمسين سنة في ظل حكام لا يذكر عنهـــم شيئا ؟

ثـــم ما بال أبي القاسم الراغب يعجب بأبي الطيب المتنبي ، ايّمـــا اعجاب ، فيذكره حينـــاً باسمه احمد بن الحسين،وحينا بكنيته ابي الطيب، وحيناً بلقبه المتنبي،ويستشهد بقـــدر كبير من شعره لكنه لا يتمثل ولـــو بكلمة واحدة من آثـــار ابي العلاء المعري وقد تعددت في شعر ونثـــر وموضوعات وفكـــر وادب ؟ الا يعني هذا شيئا لنـــا ؟ وقد توفي أبـــو الطيب عـــام ٣٥٤ (٧٠) وقضى ابو العلاء عـــام ٤٤٩ هـ ؟ (٧١) وهل يعقل ان موقف الراغب من ادب ابـــي العلاء وفكره قد منعه من ذلك ؟ انني لم اقف على شيء يؤيـــد ذلك فيما اطّلعتُ عليه من آثـــاره .

ثـــم انّ في آثاره ما يشهد بأنّه عاصر بعض مراحل الصراع الفكري بين علماء الكلام وسائر الفرق الاسلامية كالأشعرية والشيعـــة (٧٢) ،

---

(٦٧) ذيـــل تجارب الامم ، ابو شجاع ظهير الدين الروذرواري ، ص ٢٦١ ، احـــداث عـــام ، ٣٨٥ ، الاعلام للزركلي ٣ / ٣ ، ط ٣ .

(٦٨) ذيـــل تجارب الامم ، الروذرواري ، ص ٣٩ ، احداث عـــام ، ٣٧٢ .

(٦٩) المصـــدر السابق ، ص ٣٨١ ، احداث عـــام ، ٣٦٧ .

(٧٠) وفيـــات الاعيان ١ / ٣٦ .

(٧١) معجـــم الادبـــاء ١ / ١٨١ .

(٧٢) احمد أمين ، ظهر الاسلام ، ط ٤ ، ٢ / ٥١ .

وقد استَمرتْ هـذه الخصومات في القرن الرابع وخَمَدتْ في القـرن الخـامس (٧٣) .

هـل نحصّل من هذا كله شيئا ؟

نحسب اننـا بازاء رجل كان يعيش في عصر الصاحب بن عبـاد المتوفى عـام ٣٨٥ هـ .

ابـو العباس الضبي ، خليفة الصاحب بن عباد :

الا تقربنا آثـاره ، بعد ذلك ، الى نفسه أكثر من ذلك ؟ لعلنـا نظفر بشيء من ذلك اذا مضينا في البحـث والتنقير في هذه الآثـار .

إنّـه حينما يورد بيت الشعر التالي في مخطوطـة « مجمـع البلاغة » (٧٤) التي عنـي الباحث بتحقيقها :

لا تحسبن دموعي البيض غير دمي وانمـا نفسي الحامـي يصعّده

ينسبه في نسخة معهـد احياء المخطوطات التابع لجامعة الـدول العربية التي رمز لهـا بحرف (ع) « للأستاذ الرئيس احمـد بن ابرهيـم » ، بينما ينسبه في نسخة مكتبـة جامع السلطان احمـد الثالث باستانبول المرموز لهـا بحرف (س) للصاحب بن عبـاد .

وهنـا نلتقط اسم « الاستاذ الرئيس احمد بـن ابرهيم » لنبحث عنه فلعلّه يكون راس خيـط يوصل الى يقين . إنّ الراغب لم يذكره في المخطوطة المذكورة مرة اخرى ، بل إنّـه لم يَرِد في اعمال الراغب إلاّ في موقف آخـر فقط ، هو في محاضرات الأدبـاء (٧٥) .

---

(٧٣) المرجـع السابق والصفحة .

(٧٤) ص ٤٩٠ .

(٧٥) الجـزء الرابع ، الصفحة ٦٠٩ ، دار مكتبة الحياة — بـيروت .

ونبحث عن صاحب الاسم لنجد أن ياقوت يخبرنا أنه « أبو العباس الملقب بالكافي الأُوحد ، الوزير بعد الصاحب أبي القاسم ابن عباد ، لفخر الدولة أبي الحسن علي بن ركن الدولة بن بويه ، مات في صفر ٣٩٩ هـ » (٧٦) ونجد أنّ « ذيل تجارب الامم » ، الذي اتم التاريخ بعد كتاب ابن مسكويه المشهور (تجارب الأُمم) يخبرنا أنّه « لدى وفاة فخر الدولة وتولي ابنه مجد الدولة الحكم ، والوزيران يومئذ هما ابو العباس الضبي المتلقب بالكافي الأُوحد وابو علي بن حمولة المتلقب بأوحد الكفاة » (٧٧) . وقد ذكره أيضا الصاحب في بعض رسائله ذكر من يرضى عنه ومن يعدّه لجلائل الأُمور في مستقبل الايام (٧٨) ، كما ذكره صاحب « وفيات الاعيان » (٧٩) والثعالبي في « اليتيمة » (٨٠) والذهبي في تاريخ الاسلام (٨١) وعباس المكي في « نزهة الجليس » (٨٢) . أما المافروخي في كتابه « محاسن اصفهان » فانه يورد نصاً صريحا يربط ما بين الصاحب وخليفته الضبي هذا ثم يذكره باسمه ولقبه بشكل صريح ، يقول « وقّع الصاحب كافي الكفاة الى الاستاذ الرئيس ابي العباس الضبي توقيعاً بقضاء حاجته » (٨٣) .

---

(٧٦) معجم الادباء ، دار المشرق ، بيروت ١٠٥/٢ .

(٧٧) ظهير الدين الروذاواري ، ذيل تجارب الامم ، شركة التقدم الصناعية ، ١٩١٦ ، احداث السنوات ، ٣٦٩ — ٣٨٩ .

(٧٨) رسائل الصاحب ابن عباد ، تصحيح عبد الوهاب عزام ، وشوقي ضيف ، دار الفكر العربي ، ١٣٦٦ ، ص ٩٤ .

(٧٩) ٢ / ٩١ .

(٨٠) ١٠ / ١١٨ — ١٢٤ .

(٨١) احداث عام ، ٣٨٨ .

(٨٢) ٢ / ٢٨٥ ، وعدّه من الذين ترددوا على بلاط الصاحب في اصفهان والريّ وأرّجان .

(٨٣) محاسن اصفهان ، المافروخي ، طبع ايران ، ١٣٥٢ هـ ، ص ٩٨ .

وقـــد يقرب هذا الوزير من صاحبنا الراغب انّـــه ذكر انّـــه رفع اليه ثلاثةً من كتبـــه ورسائله ، لم يذكره باسمه ولكن بلقبه « الاستاذ » :

ففـــي مقدمة كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين يقـــول الراغب:« وقـــد عملت ذلك للأستاذ الكريم ايّـــده اللـــه » (٨٤) .

وفي احدى رسائله المخطوطـــة (٨٥) يقول:« ولمـــا رايت الأستاذ حَرَسَه اللـــه ... » وفي اخرى يقول (٨٦):« قصدي في هـــذه الرسالة ان ابيّن للأستاذ ادام اللـــه تأييده ... » وفي آخرها يقول:« .. وقـــى اللـــه الأستاذ واطال بقـــاه » .

وهـــو في كتابين منشورين يكني عنه بـــ « سيدنا » وهو مَـــنْ نرجح انّـــه هو ايضا ، ففي مقدمة كتاب المحاضرات (٨٧) يقول:« وبعـــد فانّ سيدنا ، عمر اللـــه بمكانه مرابع الكرم ... احـــبّ ان اختـــار لـــه ... »

وفي مقدمـــة المخطوطة المحققة « مجمـــع البلاغة » يقول:« ... ولمـــا رايتك حرس اللـــه جمال الفضل بك مائلا الى الألفاظ المونقة ... تتبعت نوادر الأشعـــار » (٨٨) .

---

(٨٤) طبعة حلـــب ، ص ٢ .

(٨٥) هي رسالة في ان « فضيلة الانسان بالعلوم » ، مخطوط ٣٦٥٤ / أ ، مكتبـــة اسعـــد افندي ، بالسليمانية.

(٨٦) هـــي رسالة في « مراتب العلوم » ، مخطوطة ٣٦٥٤ / ٤ ، مكتبـــة اسعد افندي ، بالسليمانيـــة .

(٨٧) دار مكتبـــة الحياة ببيروت .

(٨٨) المخطوطة ــ مجمـــع البلاغة ــ المقدمة .

ولقد عرف هذا اللقب لغير هذا الوزير أيضا ، فقد كان يلقب به ابو الفضل ابن العميد ، كبير وزراء بني بويه . غير أن الراغب لم ينسب هذا اللقب لابن العميد حينما يذكره ، وكثيراً ما ذكره ، في « محاضرات الادباء » وفي « مجمع البلاغة » ، بل انه قد نسبه لهذا الوزير ، أحمد بن إبراهيم ، ابو العباس الضبي فقط ، كما رأينا .

كشف عصر الراغب :

من هنا يرجح الباحث أن ابا القاسم الراغب الاصفهاني قد عاصر أولا الصاحب بن عباد ، وزير بني بويه ، المتوفى عام ٣٨٥ (وكان قد عاصر قبله ابن العميد) ثم عاصر بعد الصاحب الوزير الذي جاء خليفة له وهو الوزير أبو العباس الضبي ، أحمد بن ابراهيم ، المتوفى عام ٣٩٩ . كما يرجح الباحث أن الراغب كان يقدم بعض مصنفاته هدايا لهذا الوزير الذي عرف بالاستاذ الرئيس .

عودة لمناقشة تاريخ وفاة الراغب :

واذ قد وصل بنا البحث الى أن الراغب الاصفهاني قد كان يعايش الصاحب بن عباد وخليفته ابا العباس الضبي فقد أصبح من الضروري البحث عن الراي المرجّح في تاريخ وفاته الذي ذكرنا ، في بداية البحث ، أن المؤرخين ، على قلتهم، قد انتهوا فيه الى خلط كبير .

الفئة الاولى :

وقد كان هؤلاء المؤرخون متميزين في فئتين ، في هذا الراي .

أما الاولى فتجعل وفاة الراغب في بداية القرن السادس ٥٠٢هـ أو في النصف الثاني منه ٥٦٥ هـ . وأما الثانية فتجعله في بداية القرن الخامس .

ولـــدى مناقشـة أقوال الفئة الاولى نجـــد انها تمثل اقوال مؤرخي الشيعة واقوال بروكلمان ومـــن شايعه .

فلقـــد ذكر صاحب « الذريعة الـــى تصانيف الشيعة » اكثر مـــن مرة (٨٩) أن الراغب قد توفي عـــام ٥٦٥ هـ ، ونقل ذلك عـــن كتـــاب « أخبـــار البشر » ، وهو من الكتب المتقدمة في طبقاتهم . ومن الغريب انـــه يناقض نفسه فيسوق ارقامـــاً اخرى ، فهو يذكر مرة ان وفـــــاة الراغب كانت في ٥٠٢ هـ (٩٠) ومرة في ٣٢٢ (٩١) . وكفى بهذا التناقض دليلا على التهافت في هـــذه التواريخ . ومن المؤسف أن نقل عنه في ذكر وفـــاة الراغب (في ٥٦٥ هـ) بعض مؤرخي الشيعة مثـــل عباس القمي فـــي « الكنى والالقاب » (٩٢) ، والخوانساري في « روضات الجنات » (٩٣) .

غـــير ان باحثاً منهم قد ناقش صحة هذا التاريخ ليثبت أن الوفاة قد تمت عـــام ٥٠٢ . قال : « وفي الروضات (ص ٢٥٦) عن تاريـــخ اخبار البشر انـــه توفي عـــام ٥٦٥ وهو غلط ، فانه قـــال بعد ذلك إنّ وفاته قبل وفاة جار اللـــه الزمخشري ، مع أن الزمخشري توفي عـــام ٥٣٨ ، ويأتـــي عن كشف الظنون أن الغزالي كـــان يستصحب الذريعـــة (الى مكارم الشريعة) للمترجم (يعني للراغـــب) والغزالي توفـــــي ٥٠٥ هـ » (٩٤) .

---

(٨٩) المجلـد ١٠ ، ص ٢٨ ، والمجلـد ١ ، ص ٣٧٤ .

(٩٠) ٢٠ / ١٢٨ .

(٩١) ٨ / ٩٥ .

(٩٢) ٢ / ٢٤٠ ، مطبعة العرفان ـ صيدا .

(٩٣) ٣ / ١٩٧ ، طهـران .

(٩٤) محسن الامين العاملي ، اعيان الشيعة ٢٧ / ٢٢٠ ، مطبعة الانصاف .

ولـــو ان هذا الباحث واصل تساؤله عن سائر تواريـــخ وفـــاة الراغب ، اذن لادرك ان المتوفى عـــام ٥٠٥ هـ قـــد يصعب ، وان لـــم يكن يستحيل ، ان يعنى بمصنف لمعاصر لـــه توفي قبله بثلاث سنـــوات فقط ، فكيف اذا كان هذا المعتني هو حجة الاسلام ابـــا حامد الغزالي ؟ ! .

ولكن من اين جاءنا رقم ٥٠٢ هـ هذا ؟ لم اجـــد مؤرخاً من الأقدمين ذكره او ذكر ما يوحي بـــه . واغلب الظن انـــه جاء من المستشرق الالماني كارل بروكلمان ، في تأريخه للأدب العربـــي (٩٥) . فجميع الذين قالـــوا بـــه في العصر الحديث (٩٦) ، ولا استثني مؤرخي الشيعة الذيـــن ذكروا قبل قليل ، فهـــم عيال عليه ، فقد نقلوا عنه نقـــلا مباشرا « امينا » . ومع ذلك فلم يشيروا الى مرجعهم ، الأفهرسة الخزانة التيمورية الخديوية ، فقد ذكرت « المتوفى ٥٠٣ ، كما حققـــه بعض المستشرقين » (٩٧) .

الفئـــة الثانيـــة :

هـــذه ، اذن ، هي اقوال الفئة الاولى في التأريخ لوفـــاة الراغب الاصفهاني ، وتكاد تتركز في عـــام ٥٠٢ ، وقليل منها الذي ذكر عـــام ٥٦٥ هـ .

امـــا الفئة الثانية ففي مقدمتها يذكر جلال الدين السيوطي (٩١١) الذي يفصل بينه وبين عصر الراغب قرابـــة خمسة قرون . فقد كـــان اول من ذكر ان الراغب « كان في اوائل المائـــة الخامسة » (٩٨) ، ولعله

---

(٩٥) المجلـد الثالث ، المبسط ، ص ٥٠٥ .

(٩٦) مثل دائرة المعارف الاسلامية ، والقاموس الاسلامي ، ومعجـم المطبوعـــات العربية ، وجورجي زيدان ، والموسوعة العربيـــة الموسعة ، وخير الدين الزركلي ، وعمـــر رضا كحالة .

(٩٧) ٣ / ١٠٨ .

(٩٨) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، الخانجي ، ط ١ ، ١٣٢٦ ، ص ٣٩٦ .

يريد بذلك انـــه قد عاش الى ما بعد نهاية المائـــة الرابعة للهجرة . ولعله يفهم منه ، كذلك انـــه لم يعش من القرن الخامس اكثر من عقـــد منـــه أو عقدين على الأكثر ، حيث يدركها وهـــو شيخ طاعن في السن (٩٨) .

ولنذكـــر هذه الصيغة التي هي اقرب الى روح التحري العلمـــي الدقيق « أوائل المائـــة الخامسة » ولم يجزم بتاريخ محدد . ولا ننسى ايضـــا ، أن السيوطي قـــد اشار الى أن فخـــر الديـــن الـــرازي تـــد أظهر اعجابه بالراغب ، واعجاب الآخرين بكتبـــه .

ولقـــد تبـــع السيوطي ، في ذكر عصر الراغب ، حاجي خليفة في « كشف الظنون » ، ومع انـــه سكت عن ذلك ، وهو يذكر بعض مصنفات الراغـــب (٩٩) ، فانـــه ذكر في بعض آخر انـــه « في رأس المائـــة الخامسة » (١٠٠) ونص على من نقـــل عنه في بعض ثالث « وسمـــاه السيوطي في طبقات النحاة المفضل بـــن محمد وقال : وكان في أوائـــل المائـــة الخامسة » (١٠١) .

ان الراغب يدين ، فيما يبـــدو ، لجلال الدين السيوطي بقدر ليس بالقليل من الذكر والتأصيل . وقد مـــر بنا أن ظهير الدين البيهقي ، أول من ذكره ، لـــم يتعرض لذكر وفاتـــه .

ولبعض الباحثين المحدثين شيء من مثل هـــذا الفضل في تحقيـــق تاريخ وفـــاة الراغب .

---

(٩٨) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، الخانجي ، ط ١ ، ١٣٢٦ ، ص ٣٩٦ .

(٩٩) المجلـــد الثاني ، ص ٣٨٩ .

(١٠٠) ١ / ٣٠٦ ، ١ / ٣١٧ .

(١٠١) ٢ / ٤٨٨ .

يذكر الاستاذ محمد كرد علي ، في تحقيقه لكتاب « تاريخ حكماء الاسلام » (١٠٢) للبيهقي السالف الذكر ، يذكر في أحد هوامشه أن الراغب قد توفي عام ٤٠٢ في أصح الروايات اي أوائل المائة الخامسة . وبقدر ما في العبارة من تحقيق قد لا يعدو الصواب كانت تنقصها الاشارة الى المرجع ، وان كان النص يشي بأنه مستقى من السيوطي .

ويذكر الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم ، في تحقيقه لكتاب « البرهان في علوم القرآن » للامام بدر الدين الزركشي في بعض هوامشه « انه ، اي الراغب ، توفي عام ٣٩٦ هـ » (كذا) . ويضيف « وانظر بغية الوعاة ٣٨٦ » (١٠٣) ويريد برقم ٣٨٦ رقم الصفحة من الطبعة التي استقى منها « بغية الوعاة » . ولا ادري من ايسن استقى هذا المحقق الفاضل هذا التاريخ ٣٩٦ ؟ وصاحب « بغية الوعاة » الذي يحيلنا عليه هو القائل بأن الراغب قد عاش الى اوائل المائة الخامسة ؟ !! .

ومع ذلك فان قرب هذا التاريخ من قول السيوطي يُذكِّر بفضل هذا الباحث ، كما يذكر بفضل سابقه .

ترجيح راي الفئة الثانية ، « في اوائل المائة الخامسة » :

ذلك ان الباحث يرى أن اقوال هذه الفئة هي المرجحة في قربها من الصواب ، من خلال ما رأينا من تهافت آراء الفئة الاولى من الداخل ، اولاً ، ومن خلال التقاء آراء الفئة الثانية ، التي هي اكثر تحريا للدقة والموضوعية ، مع ما توصلنا اليه في كشف عصر الصاحب ، قبل

---

(١٠٢) مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٤٦ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(١٠٣) مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ط ١ ، ١٩٥٧ ، ١ / ١٢٦ .

قليل ، من معاصرته للصاحب بن عباد وخليفة الصاحب الوزير ابن العباس الضبي المتوفى عام ٣٩٩ هـ .

الخطأ في تاريخ وفاة الراغب ـ قرن من الزمان !!!

ومن هذا التحقيق يتبيّن لنا حجم الخطأ الكبير الذي يقع فيه كل من قال ويقول بأن أبا القاسم الحسين بن مفضل ، المعروف بالراغب الاصفهاني قد توفي عام ٥٠٢ هجرية . فبدلا من أن يعدّ في كُتّاب القرن الخامس الهجري (١٠٤) ومفكريه فانه ينبغي أن يكون من اشهر من يحسب من ادباء القرن الرابع ومفكريه ، ذلك العصر الذي شهد الحضارة العربية الاسلامية في ازهى عصورها .

وبتحقيق هذا التاريخ نكون قد التقينا ، بعد التحري الدقيق ، مع ما خطّه القارىء المجهول ، على احدى مخطوطات الراغب في استانبول ، من ان الراغب قد توفي عام ٤٠٦ هجرية . وقلنا عن هذه الاشارة ، لدى عرضها ، انها لا تحمل مقومات الثقة في المراجع ولكننا توصلنا ، عن طريق آخر ، أنها صحيحة وان لم تأتها الصحة من نفسها .

عُمْر الراغب :

اما عن العمر الذي عاشه الراغب فاننا نقول اذا صح ما استنتجنا ، ونرجو أن يكون كذلك ، من انه قد توفي في العقد الأول من المائة الخامسة للهجرة ، وصح ما استنتجنا ايضا من ترتيب مصنفاته في حياته ومن انه قد بلغ من العمر عتيّا ، وصح ما خطّه قلم كاتب

---

(١٠٤) كما عده الدكتور عمر فروخ في كتابه تاريخ الادب العربي ـ دار العلم للملايين ، الجزء الثالث ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢١٤ .

مجهول آخر على مخطوطة اخرى للراغب في استانبول من انه قد توفي عن ستة وستين سنة ، وهذا ما لم يقم عليه دليل بعد ، اذا صح هذا كله فان الراغب لا يبعد أن يكون من مواليد العقد الخامس أو الرابع من القرن الرابع الهجري . والله اعلم ، مع هذا كله ، بتاريخ ولادة الراغب وتاريخ وفاته .

اديب ومفكر ولغوي ومفسر ولكنه مظلوم :

وربّ سؤال ينهض في وجه هذا البحث الذي طال ليحاول تحقيق تاريخ وفاة : فيمَ كل هذا العناء ؟

تتكشف الاجابة عن هذا السؤال اذا ما تذكرنا صمت كتب التراجم والطبقات ، الى حد ملموس ، عن التعرض لصاحب مصنفات روي ان حجة الاسلام ، الغزالي ، كان يعجب بها ويستحسنها لنفاستها ، واذا ما تذكرنا ان اغلب اصحاب المعاجم اللغوية وتفاسير القرآن الكريم التي عاش اصحابها بعد عصر الراغب قد افادوا جميعا ، تقريبا من كتابه الفذ « معجم مفردات القرآن » ، واذا ما اضفنا ، الى ذلك ، ان الراغب قد ظلم في مصنفات معاصريه وفي الابحاث الجليلة التي قامت حول رجال التراث ومصنفاتهم في العصر الحديث .

فقد ذكر الراغب ابن مسكويه ٤٢١ هـ (١٠٥) ولكن ابن مسكويه ، في اغلب الروايات لم يجره على لسانه . ولم يرد في مصنفات ابي حيان التوحيدي ٤٠٠ هـ (١٠٦) ، في حدود ما أعلم ، وقد حفلت كتب التوحيدي بكثير مما شارك فيه الراغب من افكار دينية وشرعية

---

(١٠٥) مجمع البلاغة ، ورقة ٣٤٤ .

(١٠٦) الاعلام ٥ / ١٤٤ ، وبغية الوعاة ، ٣٤٨.

وأخلاق وسلوك . ولـم يذكره معاصره ابو منصور الثعالبي وقـد شغل بالتأريخ لادب القرن الرابع الهجري كلـه ، وقد توفي ، على الأرجـح بعـد الراغب ٤٢٩ أو ٤٣٠ هـ (١٠٧) . كما ان الباحثين في حيـاة ابـي الحسن البصري الماوردي وفي « احكامـه السلطانية » وفـي احاديثـه في الاخـلاق وفي « ادب الدنيا والدين » لـم يذكروا ان هذا القاضـي المشهور بعدله قد مـرّ على خاطره اسم صاحب الذريعة او تفصيـل النشأتين وهما في الاخلاق والسلوك ما همـا .

كمـا ان ما قـام حول ادب العصر العباسي وفكره وتراثه فـي العصر الحديث (١٠٨) ، لم يكـد يتعرض للراغب ، في قليل او كثير .

سـر التجاهـل :

ان هـذا كله يحملنا على التساؤل عن اسباب نُـدرة الترجمة ، في القديم وفي الحديث ، لفكـر الراغب وادبه واثره . وهو تساؤل يبرز امام كل باحث يتعرض للراغـب ويشهد المفارقة الشاسعة بين فضـل الرجل وبين تجاهل الناس ايـاه . فقد تعرض لـه الباحث الوحيـد ، فيما اعلـم ، في العصر الحديث ، فتساءل ، في درس الراغب ، عـن هـذه الاسبـاب .

---

(١٠٧) مقدمـة كتابه « التمثيل والمحاضرة » تحقيـق عبد الفتاح الحلو ، ١٩٦١ ، طبعـة الحلبـي .

(١٠٨) مثـل مصنفات ظهر الاسلام للاستاذ احمد أمين ، والحضارة الاسلامية في القرن الرابع ، لادم ميتز ، ولا أستثني النثر الفني في القرن الرابع ، للدكتور زكي مبارك ، فاشارة يتيمة للراغب لم تكن كافية على الاطلاق ، ويجري مجرى هذه المصنفات الابحاث الجامعية المتـررة على طلبة الجامعات .

فقد وجد الاستاذ محمد كرد علي ان عدم اتصال الراغب بقضاء او عمل للدولة او منادمة أمير او وزير هو سبب عدم ذكره ، في طول التاريخ الادبي وعرضه . ويضيف الى هذه الاسباب المحتملة سكنى الكاتب في مدينة غير مشهورة من مدن بلاد فارس ، غير أصفهان ، التي اليها ينسب ، وغير نيسابور ، التي قيل انه بها قد توفي وفيها دفن ، فقد أخرجتا رجالا لهم خطرهم في شتى الفنون .

ويحدس باحث آخر (١١٠) أن السبب هو تنقل الراغب بين بغداد واصفهان ، ولا احسب ان اديبا في عصر الازدهار الفكري والادبي الذي عاشه الراغب ، قد صفق على نفسه الباب ، ولم ينتقل في ارجاء العراقين .

وربما كان ما اصاب الراغب من اهمال سببه فقدانه لعطف الفرق الاسلامية التي كانت احزاباً تقوم على اساس سياسي كالإمامة او عقائدي كصفات الله تعالى وافعاله . وقد فقد عطف هذه الفرق لانه لم يعلن ولاءه لاحداها في مواقفه وفي مصنفاته ، بل انه قد انتقد كلا من المعتزلة والمتشيعة والمشبهة والخوارج ولم يقبل منها إلاّ راي اهل السنة والجماعة (١١١) .

تشيعه :

ولا استبعد أن يكون احد أسباب تجاهله ، في القديم والحديث ، هواتهامه بالتشيع ولعل هذا الاتهام قد نفذ اليه من احتفاله البيّن

---

(١١٠) هو الدكتور حسين محفوظ ، استاذ الدراسات الشرقية بكلية الاداب بجامعة بغداد ، في حديث شخصي مع الباحث اثناء زيارته لبغداد بتاريخ ١٩٧٥/١٠/١٠ .

(١١١) مخطوطة رسالة في الاعتقاد ، للراغب ، رقم ٣٨٢ ، مكتبة سعيد علي باشا ، السليمانية ، استانبول ، الورقة الثانية .

باقوال الخليفة الرابع ، كرم اللـــه وجهه ، فهو يكثر من التمثل باقوالـــه وافعاله ويردّد بيـــن الحين والحين اخبار اهـــل عِتْرته ، واكثـــر ما يكون هـــذا واضحا في مصنفاته الادبية كمحاضرات الأُدباء ومخطوطة « مجمـــع البلاغة » . ومن هنا تجـــد أن كتب تراجم الشيعة (١١٢) قـــد افردت له صفحاتها بينما لم يترجم لـــه السبكي في طبقات الشافعية مثلا .

غير أن احـــد مترجمي الشيعة يفطن لمـــا فعل من خطأ ويقـــرر « انـــه من الشافعية كما استفيد لنـــا من فقه محاضراته (١١٣) ، وهنـــا نـــراه يلتقي مع ما يقرره فخر الدين الرازي من « ابـــا القاسم الراغب من ائمـــة السنة » (١١٤) .

فكيـــف نوفق بين احتفال الرجل باخبار علي بن ابي طالب وافعاله وبين قول بعض العلماء من انـــه سني ؟ انـــه ليبدو للباحث أن الراغب لم يتجاوز حبه لعلي ، كرم اللـــه وجهه ، ما يرضي بـــه نـــداء الوجدان الذي تربى عليـــه ونشأ فيه ، ذلك لانـــه في مواقف الفكـــر والعقيدة صريح صراحة لا تترك مجـــالاً لنقاش ، فيُخطّىء سائر الفـــرق الاسلامية ويعلن ولاءه الصريح لاهـــل السنة والجماعة ، فهو يقول : « الفِـــرَق المبتدعة الذين هـــم كالأُصول للفرق الاثنتين والسبعين (١١٥) سبعـــة : المشبّهة ونفـــاة الصفـــات والقدرية والمرجئة والخوارج والمخلوقيـــة

---

(١١٢) مثـــل الذريعة الى تصانيف الشيعة ٢٠ / ١٢٨ ، واعيان الشيعة ٢٧ / ٢٢٠ ، وسفينة البحـــار ، والكنى والالقاب ٢ / ٢٤٠ ، وروضات الجنات ٣ / ١٩٧ .

(١١٣) الخوانساري في روضات الجنات ، طبـــع ايران ٣ / ١٩٧ .

(١١٤) في ترجمة السيوطي للراغب ، بغية الوعـــاة ، ٣٩٦ .

(١١٥) يشير الى الحديث الشريف الذي اورده الشهرستاني دون تخريج (الملل والنحل ، ١ / ٨) « ستفترق امتـــي على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية فيها واحدة ...

والمتشيعة . فالمشبهة (١١٦) ضلّت في ذات الله ، ونفاة الصفات (١١٧) ضلّت في صفات الله والقدرية (١١٨) في أفعاله والخوارج (١١٩) في الوعيد ، والمرجئة (١٢٠) في الايمان ، والمخلوقية (١٢١) في القرآن ، والمتشيعة (١٢٢) في الامامة ... والفِرَق الناجية هم اهل السنة والجماعة الذين اقتدوا بالصحابة (١٢٣) .

وليس المقام مقام توسع في موقف الراغب من الفِرَق الاسلامية وقناعته براي السنة والجماعة ، ولكنني اكتفي بهذا القدر منبهاً الى صيغة المتشيعة وما فيها من دلالة لغوية ومن فَرْق بينها وبين الشيعة ، والى ان لقب الامام الذي يحمله لا يطلق الا على علماء السنة . والى ان الكثير من الناس في مصر وفي غيرها من البلدان العربية

---

(١١٦) هم جماعة من الشيعة الغالية قالوا ان معبودهم صورة ذات اعضاء وابعاض ، (الشهرستاني ، الملل والنحل ٢ / ٩) .

(١١٧) يريد المعتزلة لانهم نفوا ان يكون لله صفات ازلية قديمة (د. علي النشار ، التفكير الفلسفي في الاسلام ١ / ٤٢٠ .

(١١٨) يزيد بهم المعتزلة الذين قالوا ان افعال العباد ليست من الله .

(١١٩) لانهم قالوا ان مرتكب الكبيرة كافر مشرك (النشار ١ / ١٨٦) .

(١٢٠) لقولهم لا تضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة (الشهرستاني ، ١ / ١٨٦) .

(١٢١) يريد من قال بخلق القرآن منهم — من المعتزلة .

(١٢٢) وخلاصة راي الشيعة في الامامة « ان الله لا يخلي الارض من حجة على العباد من نبي او وصي ظاهر مشهوراوغائب مستور » و « ان النبي قد اوصى لعلي ، واوصى علي لابنه الحسن ، واوصى الحسن لاخيه الحسين ، وهكذا الى الامام الثاني عشر المنتظر » (الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، اصل الشيعة واصولها ، بغداد ، ط٣ ، ١٩٤٤ ، ص ٨١ .

(١٢٣) مخطوطة رسالة في الاعتقاد ، للراغب ، رقم ٣٨٢ ، بمكتبة سعيد علي باشا ، السليمانية ، استانبول .

والاسلامية ليتعلقون بحب آل البيت دون أن يقولوا بقولهم في الامامة وفي الوصاية .

حتى اذا ما عدنا لنرى اثر هذه التهمة على أبي القاسم الراغب وجدنا انها كانت ذات اثر كبير في اغفال المترجمين لترجمته ، فقد حُسِب على الشيعة وانكره مصنفو الطبقات والتراجم العامة لهذا السبب ، وتبيّن انه ليس من الشيعة ، فضاع اثره بين هؤلاء وأولئك ، وانتهى الى ما نرى من نكران وخمول ذكر .

وقد يرد في الذهن ، من أسباب خمول ذكره ، ما فيه من عفة وترفع أو انعزال عن دائرة الضوء ، كما نقول في هذه الايام ، وعن بلاطات الحكام . وايّاً ما كان السبب او كانت الأسباب فاننا نظل بازاء كاتب مفكر وفقيه ومفسر ولغوي قد حاق به ظلم كبير في كتب التراجم القديمة وفي ابحاث معاصريه ومعاصرينا ، ورجاؤنا ان يكون هذا البحث محاولة أولى في ازاحة ركام النسيان والتجاهل عن اثره وعن آثاره .